الإفطار الأخير

هشام شعبان

الكتاب: الإفطار الأخير (رواية)

المؤلف: هشام شعبان

رقم الإيداع: 2020/ 19690

الترقيم الدولي: 978–977–493–230–4

الطبعة الأولى القاهرة ٢٠١٥

الطبعة الثانية القاهرة ٢٠٢٠

الغلاف: محمد بيلي

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين - برج الشانزليزيه - زهراء المعادي - القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هَذَا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول عَلَى موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

الإفطار الأخير

رواية

هشام شعبان

إهـــداء

إلى عزة الشناوي...

من أهدتني إياها السماء فكانت لي نورًا في ظلمة الوادي...

من أحبتني دون تكلف وتحملتْ غرابة أطواري...

من امتلكتني بعشقها وأغمتني بسحر عينيها عمَّن سواها...

إليكِ يا سيدتي أهدي هذا الكتاب...

هشام شعبان

- ١ -

انتهى أهل القرية من صلاة العصر... فرغ بعضهم لقراءة القرآن، والبعض الآخر لتسبيح الله واستغفاره على سيئاتٍ ارتكبها ولا يزال طوال عامه المنقض... الغالبية خرجوا؛ كُلٌّ يسعى؛ منهم مَنْ ركب حماره الذي أخرج لسانه من اللهث بسبب الشمس الحارقة في نهار يوليو، ومنهم من سار على قدميه يجرُّ الواحدة تلو الأخرى في خطوات بطيئة وثقيلة... درجة الحرارة المرتفعة جدًا ذلك العام كان تأثيرها أكبر وأكبر من لذة الصيام الشاقة... مُتعة الشهر الكريم التي اعتاد عليها أهالي قرية "الحجر" تلاشت جزئيًا.

لم يكن المناخ الحار وحده سببًا في تلك الصبغة السوداء التي دبغت وجوه الأهالي بطابع الشيخوخة المبكِّر، بل التقدُّم في عمر الحياة، هذه الدنيا الفانية التي انتظرت أجيالٌ متعاقبة موعد فنائها، وكأن الصراع هنا بينهم وبينها.

الهموم مرسومة على خريطة المنازل التي اتخذت شكلاً تقليديًا باهتًا مثل كثير من القرى غيرها. لا شيء يعلو الطوب الأحمر الخرساني ولا حتى الطوب اللبِن الذي غطَّى البيوت الصغيرة في أطراف القرية ناحية المزارع والحقول... دكاكين صغيرة كأن عمرها نصف قرن أو أكثر.

في تلك البيئة؛ تربَّع الشيخ عيسوي إمام جامع "الدعوة" على قلوب الأهالي وعقولهم... كان الجامع الذي يتكون من طابقين أحدهما لعقد حلقات الدرس وتحفيظ القرآن لأطفال البلدة، قد كلَّف الأهالي آلاف الجنيهات، فتكوينه المعماري والزخارف المنقوشة ومساحته الواسعة وما به من سجاد ومأذنة عالية؛ أمور جميعها جعلت من هذا المسجد منارةً للأهالي، منارة تعلو منارة المدرسة والجامعة، فتجد شباب القرية وأطفالها يجلسون أمام الشيخ عيسوي في هيبة ساكنة لا يضاهيها شيء.

واقعٌ ضيق تعيشه البلدة يخيِّم عليه غيوم غريب في هذا الوقت من العام... ضربات رعد وبرق كأنها رسائل

من السماء... رسائل للتنبيه والتحذير من واقع ضال ونفوس مريضة تأبى الشفاء... وكأن الصمم أصاب أهلها فأضحوا يعيثون دون أن يتوقفوا هنيهة للتفكير أو مراجعة نفوسهم الأمَّارة بالسوء.

❖ ❖ ❖

- ٢ -

أخـرج الدكتور "محمود البياض" أحـد هواتفه المحمولة الثلاثة، وهمَّ بمهاتفة الشيخ عيسوي... استقبل عيسوي المكالمة بوجهٍ مسرورٍ لدرجة تضرج وجهه بالحمرة، فقطع حلقة درسه وهمَّ خارجًا بعيدًا عن تلاميذه... راح يكيل المديح للبياض وهو يرزع في باحة المسجد وأركانه من فرط السعادة :

– دكتور محمود بنفسه ؟ ده شرف كبير لي ولكل أهل "الحجر"، أي والله.

– يا شيخ عيسوي إحنا في أيام مباركة، وعمل الخير إنت عارف ما أقدرش أتأخر عنه أبدًا، وما تنساش أنا من "الحجر" ودول أهلى وناسي لازم أعملهم إفطار جماعي.

– الله الله، أصيل وابن أصول طول عمرك يا دكتور محمود... ده أهل البلد كلهم بيعزوك ويقدَّروا أعمالك الخيرية.

– طيب طيب هأبعتلك محمد ابن أختي تخلصوا الموضوع ده... يا شيخ عيسوي بركاتك معانا الانتخابات قرَّبت.

– يوه يوه يوه ودا كلام يا دكتور ؟! إحنا وراك لحد ما تمثلنا تحت القُبة.

أغلق كلاهما الهاتف... مال محمود بظهره على كرسي مكتبه بقناته الفضائية، نفخ دخان سيجارته الـLM وهو ينظر إلى شهادة الدكتوراة في إدارة الأعمال التي حصل عليها بمبلغ ١٠ آلاف دولار من جامعة كامبريدج!... في حلمه بالكرسي والمقعد البرلماني طرق الساعي باب الغرفة واستأذن لجلب كوب القهوة... تناول البياض الكوب بيدٍّ مرتعشةٍ وارتشف منه، ثم همَّ خارجًا بسرعة البرق بعد أن استقبل رسالةً من مجهول.

❖ ❖ ❖

عاد الشيخ عيسوي لتلاميذه واستكمل معهم الجزء الثاني من درسه اليومي عن عمل الخير وجزاء الصدقة في الدنيا والآخرة... راح يحدِّثهم حينًا ويشرد بذهنه حينًا آخر وهو يفكِّر في عمولة الإفطار الجماعي التي

تنتظره وينتظرها بلهفة.

مَـرَّ يومان منذ هاتفه البياض، وفي مساء اليوم الثالث، وقف "محمد عبده" أعلى كوبري البلدة ينفث دخان سيجارته في زهوٍ وهو يتلفت يمينًا ويسارًا في انتظار الشيخ عيسوي... كان محمد شابًّا أشقر بشعرٍ بُني ناعم، فشل في مراحله المختلفة بالتعليم، حتى أنقذه خاله بتعيينه مديرًا ماليًا بالمحطة الفضائية خاصته... الشعور بالنقص هو صديقه، غيَّر ديكور الغرفة وأتى بخزنة ذات أرقام سِرِّية ووجد نفسه في التسلط على العاملين كلما طرقوا باب غرفته مع اليوم الأول من الشهر طلبًا للراتب...

اعتاد محمد المرور بمدير البرامج في انتظار إجابة بخصم لأحد المعدين... في يده سلسلة مفاتيح تصدر وسوسة مزعجة كلما وطأت قدماه مكانًا، له سِنّة ذهبية تلمع كلما انفرجت شفتاه ضحكًا أو عندما يتثاءب... بدأ منذ عدة أشهر التجهيز لشقة الزوجية في منْزلهم بقرية "الحجر"... واعتاد الاجتماع يوميًا بـ"فاروق" و"وليد" العاملين بالقناة كي يسرد لهما أخر المستجدات

وكيف أن سعر "الموبيليا" ارتفع للضعف، وكذا أجرة الصنايعية.

ثقافته المحدودة قابلها بشراء أغلى ماركات الملابس وسيارة نيسان صني تسد شارعهم كلما حضر من القاهرة إلى البلدة... بقميص أبيض وبنطال أزرق من الكتان وقف أعلى كوبري القرية ماسحًا جبهته بعدما تصبَّب العرق عليها.

حضر عيسوي مهرولاً على دراجة "أحمد عثمان" البخارية... هبط من عليها بجسده المترهل ثم اصطحب مرسال البياض في جولة بالبلدة... مكثا نحو نصف الساعة اتفقا خلالها على تنظيم إفطار جماعى لأهالي القرية في جامع "الدعوة"... تسلَّم الشيخ عيسوي مبلغًا من المال ورحل.

❖ ❖ ❖

في منْزله ارتمى عيسوي على سرير ذي قوائم نحاسية لأخذ قيلولته اليومية المعتادة، بعدما أخبر زوجته أن توقظه قبل المغرب... ذهبت هي لتُدبِّر أعمال المنْزل ورعاية الأطفال، فمرَّت الساعات حتى نسيت الزوجة إيقاظ زوجها... نهض كالمجنون :

– الساعة كام ؟... إيه ده ؟... يا مرة يا بنت الكلب... أنا مش قايلك تصحيني قبل المغرب ؟.

في ثورته الهائجة تلك وهو يمسك بشعر رأسها إذ بـ"الشيف عبده" يطرق الباب... توارت هي في غرفة داخلية بعدما أخذت أطفالها الباكين ولملمت خصلات شعرها، مجففة دموعها بطرف كُمها... أما الشيخ فوقف يهندم نفسه سريعًا أمام المرآة قبل أن يهم بفتح الباب...

كان الشيف عبده شابًا في مقتبل العمر، غير متزوج، متعهد الأفراح والمناسبات في قرية "الحجر" والقرى المجاورة...

بعد التحية والسلام دخل إلى صالة المنْزل المُزينة بآيات من القرآن كقوله تعالى "فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"... وقوله تعالى "وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ"... وقول الرسول الكريم "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".

تبادل الاثنان الحديث، أخبره الشيخ عيسوي بضرورة تجهيز كمية كبيرة من الطعام من أجل حفل

إفطار جماعي ينظمه الدكتور البياض لأهل بلدته... بدت معالم اللهفة على وجه الشيف عبده، مرَّر لسانه على شفتيه وزاغت عيناه على الأُجرة التي بلا شك ستكون "مُعتبرة"؛ هكذا حدَّث نفسه... أخذ عربون الصفقة الذي جعل عينيه تتلألأ وانصرف، على وعد ببدء الإعداد للحفل من ذلك اليوم.

❖ ❖ ❖

- ٣ -

- فين الدكتور يا عبد الله ؟

هكذا وجَّه مدير البرامج بالقناة سؤاله للساعي...

- الدكتور مشي فجأة والله يا أستاذ حسن، حتى مكملش فنجان القهوة.

قطب حاجبيه وقال :

- غريبة دي !

صمت قليلاً وهو يحرِّك أصابعه على المكتب فتصدر صوت طبلة تدق ناقوسًا... ابتسم بعدما ربت على كتف عبد الله، ووضع حاجياته في خزانة وأغلقها بإحكام...

استغل "حسن" غياب رئيس القناة من أجل الانصراف باكرًا، فلديه موعد مع خطيبته رقم ١٠ والتي يمني النفس أن تتم هذه المرة على خير... خرج مسرعا ضاربًا بالبرامج والهواء عرض الحائط، وتاركًا رسالة لزميلٍ له : "ظبط أنت بقى الليلة دي" !

في انتظارها له بناصية مسجد الحصري لم تسلم "وعـد" مـن نـظـرات الـقـوم وإيـحـاءاتـهـم الجنسية الواضحة... ببنطال جينْز التصق بفخذيها الممتلئين وقميص أبيض أظهر بروز سنتيانها الأحمر، وقفت تنتظر حسن، الذي كان قد تعرَّف عليها خلال إجرائه فحوصات طبية لمعاناته من مشكلات بالحالب... لم يصارحها قطعًا بمحاولاته التسع السابقة لنيل شريكة الحياة، ظنًا منه أن هذا الأمر يخدش كبريائه، وهو الذي لطالما تعرَّض للسخرية من أصحابه لفشله المتكرر في إتمام أي مشروع زواج.

التقط يدها وهي تمسك خصرها، استسلم لوصلة اللوم والعتاب على التأخير، ثم لم يلبثا طويلاً بالشارع حتى استقلا التاكسي نحو سينما قريبة...

في قاعة العرض جلست على كرسيها بجسدٍ يفور كلما مرَّ بها مشهد حميمي يقبِّل فيه البطل حبيبته أو يحتضنها حتى تلامس شفراتها صغيره... بجانبها حسن كالتيس الخامل، دفن نفسه في صندوق حجم عائلي من الفشار المملح.

توالت تنهداتها وتقلباتها على الكرسي، كتمت ضيقها وهـى تـرى آخـريـن حولها يعيشون لحظات ماجنة... استأذنت للذهاب إلـى حمام السيدات، وهناك استسلمت لرغبتها الجامحة وهي تغمض عينيها وتعض شفتيها بأسنانها حتى ارتعشت وبلَّلت ثيابها الداخلية السوداء.

خرجت أمام المرآة فأعادت هندام ملابسها ثم رجعت للاستقرار بمقعدها في منتصف الصالة... وقد انتهى حسن من الفشار!

❖ ❖ ❖

- ٤ -

كالعادة أمسك بين إصبعيه سيجارته ونفخ منها في توتر وترقب... أصابع قدميه لا تكف عن الحركة داخل حذائه إيطالي الصنع... نظرات متبادلة بينه وبين السكرتيرة ونظرات دورية على ساعته التى تخطَّت الحادية عشر مساءً... أخيرًا أُذن له بالدخول... إلى غرفة ملكية في الدور التاسع من برج شامخ بشارع "مصدَّق" في الدقي... بدت الغرفة للوهلة الأولى كأنها من زمن فات، فأرضيتها مغطاة بسجادة أثرية تعود إلى دولة العباسيين، والجدران مزينة بلوحات فنية مؤطرة ببراويز ذهبية.

وسط إضاءة خافتة جلس على حافة الكرسي المقابل للمكتب، حتى أتاه صوت أجش صارم من ذلك الشخص الذي أعطاه ظهره:

- نازل الانتخابات مستقل ولا على قايمة حزب يا محمود ؟

يجيبه بارتباك :

– لوحدى... مسـ... مستقل يا أفندم.

– طيب وكده هتعرف تكسب ؟!

– أهو بأحاول سيادتك، ده أنا حتى رحت لأكتر من رئيس حزب حتى أعواننا وكلهم خذلوني.

– طيب أنا عايزك تركز وتشتغل كويس... إنت أحد كوادرنا الفترة اللي جاية وعايزينك معانا.

– ده شرف كبير لي معاليك... بس أنا بأطمح في كرمكم معايا.

– اطمن... المقابلة انتهت.

خرج البياض إلى سيارته المرسيدس وأمر سائقه مختار بالانطلاق نحو القرية فورًا.

وصلا قبيل الفجر، هبط مختار من السيارة وطرق باب الشيخ عيسوي بقوة؛ قوة أفزعت عيسوي وزوجته وأولاده بل والجيران... نهض الشيخ بكلسونه الأبيض وهو نصف مغمض، أزاح مزلاج الباب والعماص يملأ عينيه، فإذا به يجد الدكتور البياض فتتهلل أساريره...

– دكتور محمود معقولة ! اتفضل يا بيه

– اركب يا عيسوي مفيش وقت

ناولته زوجته التي استيقظت ووقفت خلف الباب، جلابيته وخزرانته... ارتدي ثيابه في السيارة وهو على عجلة من أمر البياض. شقَّت السيارة طرقات البلدة المتعرجة صوب قصر محمود بيه الكائن بأحد أطراف البلدة... طوال الطريق، لم يكف عيسوي عن الثرثرة وعبارات الترحاب والسعادة... بعد حين، أضاء نور الفجر أزقة القرية وحاراتها، كانوا قد وصلوا القصر، مروا من الحديقة التي امتدت أغصان أشجارها هنا وهناك نتيجة لإهمالها ورحيل عم حنفي الذي اعتاد تهذيبها في الأيام الخوالي.

بعد مشادة مع المفتاح والكالون، انفتح باب القصر بصوت أزيز تقشعر له الأبدان... دخل الثلاثة... بدا القصر كأن لا حياة فيه منذ قرون، فالحوائط والأثاث مغطاة بطبقة سميكة التراب... هرول عيسوي لتنظيف باحة المنْزل، وأمر البياض سائقه بإعداد الشاي لهم.

جلس الاثنان، وهمَّ البياض بالحديث :

– بص يا شيخ عيسوي، فتح عينيك وطرطق ودانك... إنت عارف إني نزلت الانتخابات اللي فاتت وما اتوفقتش، وأديك شوفت صرفنا قد إيه... لكن المرة دي غير أي مرة، الراجل الكبير معانا، أنا لسه جاي من عنده ليلة امبارح، مرحبين وعايزيني معاهم... بس أنت عارف لازم الشويتين قدام الناس عشان القيل والقال... ولا إيه.

– كلامك صح ودماغك تتاقل بالدهب يا بيه... وإحنا في ديك الساعة، على الأقل ينوبنا من الحب جانب... بس إنت شايف مفروض نبدأ إزاي ؟

– جهز إنت الإفطار ونظمه كويس في الجامع... أهو الجامع ده أنا دافع فيه آلاف، جه الوقت اللي نجني المحصول... اعزم كل أهل البلد، الصغير والكبير، الغني والفقير... واطبع لنا يافطة كبيرة، وأنا موصي العيال في القناة يعملوا الواجب.

في المطبخ دفس مختار ملعقة ذهبية من طقم كامل ورثه محمود عن أبيه... وأعد لهما الشاي بعدما انتقى فنجانين من طاقم الفناجين المدهب.

شرب عيسوي الشاي ورحل...

في طريق عودته للمنْزل، كانت القرية قد استيقظت جميعها... فرأى "فتحية" تهندم زي ابنها أمام المنْزل قبيل ذهابه للمدرسة، ركَّز بصره عليها وخط شاربه بإصبعيه وهو يقهقه... قاطعه صميدة وهو يجرُّ جاموسته ويركب حماره بـ"سلامو عليكو يا شيخ عيسوي"... رد الشيخ السلام وزاغ ببصره يمينًا ويسارًا واقترب من فتحية التي كانت قد تركت الباب مواربًا.

لفَّ ودار في شوارع محيطة وملتوية كنِيّته... ودلف إلى دار فتحية التي بدورها جهزت نفسها بارتداء قميص نومها الفلاحي الأحمر... أغلق الباب وهو يحتضنها ويقبِّل وجنتيها، ويهمس : "فيه حد في البيت ؟".

انطلقت منها ضحكة عالية ساخرة مفعمة بالدلع والدلال... انهار عيسوي وخرَّ صريعا لضحكاتها... حملها بين يديه وهي تلف ذراعيها حول رقبته الشامخة ويعلوها وجهه الذي يكاد ينفجر إحمرارًا من تدفق الدم إليه... أصابعها لا تكف عن مداعبة لحيته الخفيفة التي حرص دومًا على هندمتها ورشها بعطر جاءه من الكعبة يومًا... ارتمى الاثنان على سرير قديم متهتك مرَّ عليه

زمن منذ تزوجت فتحية بعبد العال الذي وافته المنية قبل سنتين... بوزنه المترهل احتضنها وهي تباعد بين ساقيها من تحته... أنفاس حارة وضربات قلب تزداد سرعتها... تتقلب فتحية يمينًا ويسارًا، مثلها مثل سمكة تموج في البحر... تعدِّل من أوضاعها من أجل إثارة أكبر ومتعة أكثر... آهاتها تملأ الغرفة كعبير أزهار في حقل أو مشتل... شعرها مثل عرف فرس صغيرة يتناثر على وسادتها البيضاء، يغطي عينيها المغمضتين من وقع الضربات المتتالية التي تستقبلها راضية...

ما لبث أن أشبع عيسوي شهوته... تلطخت هي به من الداخل والخارج... مستمتعة مغمضة العينين وهي ما تزال تئن، لا تقوى على الحركة... حين فتحت عيناها كان بريقهما أكثر لمعانًا من وهج الضوء... جذبت يد عيسوي التي استراحت على مؤخرتها، قبّلتها ثم عادت لغفوتها من جديد.

لم يكن عيسوي بالنسبة لها سوى زبون، كغيره يأتي لدفع الأُجرة واحتساء المشروب... ترك لها نقودًا على منضدة، بعدما اغتسل وخرج عائدًا لمنْزله خلسة.

- ٥ -

أرسلت في طلبه لأمرٍ مهم... كان قد جلس على كرسي هزَّاز من الخشب في بلكونة منْزله الذي يعيش فيه مع والدته واثنتين من شقيقاته البنات... ارتشف من كوب القهوة وارتسمت على وجهه علامات الضيق بعدما تذكر مشاجرته مع وعد، فور خروجهم من السينما أخر مرة.

بنبرة خبيثة دعا أخته لكي قميصه الوردي وبنطاله الأزرق... ارتداهما بعدما جزَّ عانته وأطلق سيفون الحمام ليغرق ما تناثر من الشعر فى الأركان وعلى الأرض.

أمام باب العقار رقم ١٢ بأحد أحياء مدينة نصر، وقف مصطنعًا التوتر، لا يعرف لماذا طلبته ليلى زوجة البياض في هذا التوقيت... ثوانٍ وانفتح الباب... تطلعت إليه بنظرة تخلو من المشاعر، ثم تهادت في سيرها أمامه وهو منقاد يبتلع ريقه ويحدِّق...

بنبرة حادة:

– اقعد يا حسن.

– إزيك يا مدام ليلى عاملة إيه ؟

تجاهلت سؤاله... وقفت عند طاولة مستديرة وصبَّت كأسين من الفودكا، وحملتهما إليه... اقتربت منه، حتى لفحت أنفاسها الحارة المختلطة بالنيكوتين جبهته :

– كنت فين الفترة اللي فاتت ؟ ومش بترد عليا ليه ؟

– أصل إنتي عارفة مشغول مع محمود فى القناة...

قبل أن يكمل...

– مبروك الخطوبة.

– الله يبارك فيكي، بس هو لسه محصلش حاجة رسمي.

تنهض مفزوعة وعيناها تحدِّق به وهي تمسك برابطة عنقه، وتقول :

– لو فاكر إنها هتاخدك مني تبقى بتحلم.

يبعد يدها عنه برفق بعدما طبع عليها قبلة خفيفة :

– ماحدش يقدر ياخدنى منك يا هانم.

ابتسمت بعدما أزاحت عنها وشاح الرأس فانطلقت خصلات شعرها السوداء تسبح مع هبوب هواء المروحة...

دفعت حسن نحو المغطس الذي جهزته قبل قليل... نزعت عنها قميص نومها الأسود وراحت تفك أزرار القميص الوردي الذي استسلم صاحبه تمامًا.

❖ ❖ ❖

- ٦ -

على منضدة من الخشب العتيق، بها درج مغلق بقِفل صدئ؛ جلس حمدان على كرسيه بعد العصر وهو يدخِّن الشيشة بنهار رمضان على مرأى ومسمع من الشباب الذين أتوا لاستئجار ملعب كرة القدم الذي بناه، بعدما قام بتجريف نصف فدان أرض وغطَّاه بالنجيل الصناعي... مشروع مكسبه مضمون تمامًا... هكذا حدَّث نفسه حين استأجر قبل شهرين المحراث الزراعي لتجريف الأرض.

حمدان... رجل غير متعلم، ورث عن أبيه أربعة أفدنة ومنْزلاً كبيرًا يعيش فيه مع أخيه الأصغر حاتم، تزوج قبل ثلاثة أعوام ولم ينجب إلى الآن، حتى أنه هدَّد زوجته بالطلاق إذا لم تكف عن إلحاحها بضرورة ذهابه إلى الطبيب... كثيرًا ما سمع الجيران صوت صراخها ونحيبها جرَّاء ضربه لها بسبب الموضوع ذاته.

في ذلك النهار، أقبل عليه المهندس عنتر مدير الإدارة

الزراعية بتلك الناحية، ممسكًا بشاهول مسبحته ذات التسع وتسعين حبة، وهو يردِّد : "سبحان الله والحمد لله والله أكبر" ... لقاء شهري متكرر بين الاثنين يأتي فيه عنتر للحصول على ٥٠٠ جنيه نظير عدم تحرير محضر التعدي على الأراضي الزراعية.

استغفر عنتر ربه وأنكر على حمدان مجاهرته بالإفطار في نهار رمضان، ذكَّره بقول الرسول "وإذا بليتم فاستتروا"، ولمَّا يأس منه التقف الظرف المعتاد وهمَّ بالنهوض.

– على فين يا باشمهندس ؟ إنت منورنا.

– معلش بقى يا حاج حمدان عايز ألحق صلاة العصر قبل ما المغرب يكبس علينا... سلامو عليكم.

– هو أنتم مش ناويين تخفوا عنا شوية ؟ ده الملعب مش جايب همه.

تسمَّر عنتر برهةً قبل أن يعاود الجلوس وهو يهمس في أذن حمدان :

– يا حمدان يا أخويا الفلوس دي بتتوزع، أوعى تكون

فاكر إني باخد منك كده عشان أنا محتاج لا سمح الله، بس إنت عارف باقي الزملاء في الإدارة. طيب مش هأخبي عليك، ديك النهار الأستاذ ماجد مدير مركز الشباب كان رايح على المديرية يبلِّغ، ولولاي أنا كان زمانك في أبو نيكلة... كل عيش وربنا يرزقنا ويرزقك بالحلال... سلاموا عليكم.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

– آه بالحق يا باشمهندس، بيقولوا محمود البياض عامل إفطار جماعي الأسبوع الجاي.

– غريبة دي! اللى عمرنا ما شوفنا منه حاجة حلوة... عمومًا ربنا يصلح أحوال الجميع.

رحل عنتر بعدما امتلأ جيبه بعشرات الجنيهات، تاركًا حمدان ينفخ دخان شيشته وهو يسبه ويلعنه ويدعو الله أن يأخذه بقدر جشعه الذي لا ينتهي هو وباقي موظفي القرية !

– إنت يا فقر يا ابن الفقر.

نادى على صبي المقهى المجاور للملعب، وهمَّ ناهضًا

من على كرسيه بعدما اطمأن لإغلاق الدرج بإحكام وأمسك بياقة قميصه :

– مش قلت لك مية مرة أنا بشرب قص البرج مش السلطان.

– والله دي قص البرج يا حاج حمدان.

– وكمان بتكدب... نادي لي المعلم بتاعك... ياللا غور.

حضر معلم مقهى "الفيروز" ممسكًا بنبوته والأرض تهتز من وقع خطواته...

كان المعلم ضخم الجثة، شيَّدت أرطال الدهون جبالاً فوق جسده... أمسك بيد حمدان وأجلسه، وقال :

– يا حمدان مش كل ما عنتر يجيلك أول الشهر تعمل كده... الولد جابلك القص اللي إنت عاوزه... روق كدة والحجرين دول على حسابي.

– أنا زهقت واتخنقت يا معلم، مش عارف ألاقيها منين ولا منين.

ربت على كتفه بعدما أبصر من بعيد سيارة المعسل

وقد وصلت أمام المقهى... استأذنه وعاد... نادى على صبيانه لإنزال عشر كراتين معسل جاءته مجانًا مكافأة إنهائه التعامل مع شركة المعسل الأخرى وما قام به من تشويه لسمعتها في الناحية كلها...

برم شاربه بعدما اطمأن على تخزين البضاعة... ثم همَّ بالذهاب إلى المسجد لصلاة المغرب.

- ٧ -

ارتقى عبده دراجته البخارية خاصته من أمام منْزله وانطلق بعدما صلَّى الفجر جماعة مع الشيخ عيسى وكثيرين من أهل القرية ممن يحرصون على فروض الله في العشر الأواخر لعل أحدهم يدعو دعوة فتصادف ليلة القدر... من خلفه قاد حسونة السيارة ربع النقل التي يعمل عليها.

مرَّ الاثنان بعدة قرى مجاورة حتى وصلا إلى مزارع الحاج عويضة للاتفاق على شراء حاجات الإفطار من طماطم وبطاطس وفلفل وبقدونس وبصل والذي منه... كان عويضة نائمًا عندما انتظرهم صبيه خليفة وفتح لهما المخزن...

كان المخزن عبارة عن عدة حجرات محاطة بسورٍ عالٍ وله سقف من جريد النخل، وله ثلاث نوافذ صغيرة يعشش فيها البوم وتحفر القوارض في حوائطه أنفاقًا، فئران تجري في كل مكان، وكرسي عتيق من الأبنوس

أمامه منضدة عليها دفتر الحسابات... أقفاص الخضروات ملأت الأرجاء، ورائحة نتنة عبقت الجو وزكمت أنفي عبده وحسونة.

جلس خليفة على كرسي معلمه، وانحنى للوراء بعدما كان قد جهز الولعة لشيشته، وسأل عبده :

– ها يا معلم عبده، نجيب من الأقفاص، ولا زي كل مرة؟

انفرجت شفاه عبده انفراجة خفيفة وخبيثة وأخرج سيجارة من جيب جلابيته القطن وهو يومئ برأسه بالنفي، ويزيغ ببصره إلى غرفة في أخر رواق المخزن.

ضحك خليفة وأخرج سلسلة مفاتيح وناولها لحسونة الذي هرول إلى الغرفة المقصودة... ما إن فتح الباب حتى هاجمه السعال كأنه محكوم بالإعدام في غرفة الغاز.. روائح نتنة تعبق الأرجاء وخنافس وصراصير تملأ المخزن وتعشش في أقفاص الخضار...

كانت الخضروات في تلك الغرفة قد فسدت ويبيعها الحاج عويضة بسعر زهيد، فهو الذي وضع على باب مخزنه لافتة "عرض وطلب... خيار وفاقوس".

لم يبالِ حسونة بالرائحة التي اعتاد عليها من زياراته المتعددة مع عبده في كل فرح أو عزاء أو طهور، وبدأ سريعًا في تحميل الكرومب والبطاطس إلى سيارة الربع نقل بعدما شمَّر ذراعيه وعقد جلابيته من المنتصف ليظهر سرواله الأبيض أبو تكة.

في تلك الأثناء أخرج عبده رزمة نقود وألقاها على الطاولة أمام خليفة؛ الذي وضع الشيشة جانبًا واستقام في جلسته وبدأ يعد:

- واحد، الله واحد... اتنين... تلاتة... كدة قليل يا أسطى عبده.

- قليل إزاي بس يا معلم خليفة ؟ ما إحنا كل مرة كده، وبعدين إنت عارف شوية البالة اللي بناخدهم، أنا مش واخد تفاح أمريكاني، ولا حتى قفص طازة.

قالها ونهض معترضًا طريق حسونة من الغرفة إلى الرُّبع نقل، فدفس يده في حجره الممتلئ بالطماطم العفنة وأخرج حبات ورماها على منضدة خليفة، فلطَّخت صفحات الدفتر:

-إيه رأيك يا معلم ؟!

– بقولك إيه يا أسطى عبده، ده عرض وطلب، والمرة دي والله جايبين كيلو الأوطة اللي مش عاجبك ده بجنيه ونص.

– بجنيه ونص فتاخد مني اتنين ونص... يا صاحبي الشغلانة مش هتجيب همها كده، وبعدين المرة دي حاجتك بايظة خالص، دي فاضلها كام ساعة واللي ياكلها يتسمم... لولاش متأكد إن معدة أهل البلد تهضم الزلط ماكنتش اشتريتها خالص.

– طيب أنا هأعمل معاك الصح، هأديلك كيلو على البيعة من كل نوع، بس هز فلوسك شوية... ها قُلت إيه؟

بدا على وجه عبده نوعٌ من الارتياح، فسلَّم خليفة باقي مستحقاته وخرج عائدًا إلى مطعمه مع حسونة.

كانت القرية قد استيقظت عندما شرع في تجهيز أواني الطهي الكبيرة.

❖ ❖ ❖

- ٨ -

في ممرٍ طويل بإحدى العيادات في باب اللوق، وقف خالد أمام غرفة العمليات... تجول في الأرجاء وهو قابضٌ بيديه على هاتفه المحمول، حاول الاتصال بوالده لكن الأخير لا يجيب... خلع بزته التي تخنقه وفتح أزرار قميصه العلوية... عبثت أضواء العيادة، تنطفئ وتنير تلقائيا كأنها شهيق وزفير، وتصدر أزيزًا يشبه أزيز باب خشبي في الشتاء تشبَّع بالماء فانسدَّت مسامه.

انتظر خالد في خوف وقلق، وأمامه ممرضة أربعينية صوَّبت بصرها نحوه من تحت نظارتها الكبيرة وهي تهمهم وتتمتم وعلى وجهها علامات اشمئزاز واستنكار وتشفي.

أشعل سيجارة تلو أخرى، وعقله لا يقوى على التفكير... بطارية هاتفه تكاد تنفذ... عاود محاولات الاتصال بوالده دون جدوى، جرَّب مهاتفة أمه لكن جوابًا منها لم يأتيه. سرت القشعريرة في جسده، خشي من حدوث مكروه

لصديقته في غرفة العمليات فيكون هو المسئول، فهو الـذي أصـرَّ عليها أن تجهض الجنين؛سترًا لفضيحة ستطول والده الذي يستعد للانتخابات.

ما بين النظر إلى عقارب ساعته وطقطقة أصابع يديه؛ مرَّت أكثر من خمس ساعات، بلغ السيل منه الزبى... انفلتت أعصابه وارتفع الأدرينالين في دمه كمؤشر بورصة في افتتاح التعاملات... ضرب باب غرفة العمليات بقدمه بقوة أحدثت ضجيجًا انسكب على إثره كوب شاي على مكتب الممرضة... انفتح الباب على مصراعيه... وقف مذهولاً لا يبالي بعمليات الشد والجذب ومحاولات الممرضة طرده من الغرفة... رأى أمامه صديقته وقد أغرق دمها السرير والأرضية حتى تجلط، وطبيب أشبه بجزار يرتدي قميصه الأخضر المصنوع من القطن وقد تبدل لونه للأحمر، في يديه مشرط ومقص... الغرفة بأكملها تفوح منها رائحة الدماء ورائحة الموت...

قبل أن يقترب منها هجم عليه الطبيب ومعاونوه، أخرجوه بالقوة، حملوه وهو يصيح بكلام غير مرتب،

ألقوه على كرسي بعدما حقنوه بحقنة مهدئ... دقائق واسترخى تمامًا، أبلغه الطبيب بوفاة المريضة أثناء العملية، وأشهر في وجهه إقرار تحمله المسئولية كاملة.

زاغ ببصره... لم يقدر على التفوه بالكلمات، تمنى أن يكون هذا كابوسًا من كوابيس المخدرات التي اعتاد عليها...

بصعوبة، استجمع ما تبقى لديه من طاقة، تناول هاتفه وحاول مجددًا الاتصال بوالده أو والدته كي ينجيانه من مصيبته.

- ٩ -

في كابينته استلقى خالعًا ثيابه في جلسة مساج خاصة تتولاها أصابع "وعد"... أغمض عينيه وهو يئن من ضغط الأصابع الناعمة على عظام ظهره وكتفيه التي بدت عليها علامات الشيخوخة.

"وعد" لا تدخر جهدًا في إمتاع زبونها وعشيقها، فهي تدرك أن حياتها تبدَّلت من النقيض إلى النقيض بسببه، وتعرف أن "حسن" ما هو إلا واجهة اجتماعية لتخفي وراءها نزواتها الشيطانية مع البياض الذي اشترى لها الشقة التمليك بأبراج عثمان في المعادي.

كانت الغرفة شديدة البرودة وتفوح منها روائح العطور الغالية... انتهت هي من المساج بعدما قُطفت قبلات ساخنة سريعة، وهو استقام مرتديًا بيجامته الحمراء والسيجار في فمه.

طلب البياض من وعد إحضار هاتفه، سارت أمامه وهي تتهادى في قميص نومها الأحمر المثير لعلها تفوز

بلحظات أخرى في ليلتهما التي انتظرتها منذ وقت ليس بقليل بسبب انشغاله بالترتيب للانتخابات... تناولت الهاتف من جيب الجاكيت وأعطته إياه...

- لماذا يتصل خالد كل هذه المرات ؟

حدَّث نفسه بنبرة استنكارية مليئة بالقلق، وأعاد التحدث إلى ابنه :

- ألو، إيه يا ابني، في إيه ؟

- بابا...

نواح وبكاء جعل الكلام ملعثمًا، ومع ضعف الشبكة لم يتبين محمود أي كلمة من كلام ابنه الوحيد... أعاد عليه السؤال بعدما انتفض من جلسته وراح يفتح بلكونة الكابينة... انقطع الخط فجأة، لم يعرف ماذا يحدث... أخرج سيجارة وأشعلها ويده ترتعش... حاول الاتصال بابنه مرة أخرى...

هرعت إليه "وعد" لمعرفة ما حدث... صبَّ جام غضبه عليها، ثم عاود محاولات الاتصال بابنه:

- رد يا خالد... رد يابني يا ترى فيه إيه ؟!... جيب

العواقب سليمة يا رب

أخيرًا أجابه خالد بكلمات قصيرة:

– الحقني يا بابا أنا في عيادة في باب اللوق... صاحبتي ماتت وهي بتعمل عملية إجهاض.

– ماتت ؟ مين ؟. إيه اللي أنت بتقوله ؟... أنا جايلك دلوقتي حالاً.

التفت البياض إلى "وعد" وأمرها بإيقاظ سائقه لحين انتهائه من تبديل ثيابه... ركضت إلى السائق الذي تمدَّد داخل السيارة خالعًا قميصه... نظرت إليه بشهوة وهي تعض بأسنانها على شفتها السفلى حتى كادت تنسى سبب مجيئها إليه... تداركت شبقها وأيقظته بسرعة كي يدير محرك السيارة فورًا...

عادت إلى الداخل تفكِّر في كلمات البياض غير المفهومة والمبهمة، لكنها لم تقوَ على أن تفاتحه في الأمر لِمَ تراه من حالته العصبية تلك.

❖ ❖ ❖

- ١٠ -

جلست مُقطِّبة الوجه، والدموع تذرف من عينيها... قلبها غير مطمئن لتأخر "داليا" كل هذا الوقت... ليس لها إلا هي، تخدمها وترعاها في كهولتها... فتحت نافذة غرفة البيدروم التي يعيشون فيها... قلَّبت النظر على المارَّة هنا وهناك لعلها تلمحها قادمة عند أول حارتهم... مرَّت عليها الدقائق والساعات دون جدوى... داليا لم تأتِ بعد... ولن تأتي... هذا ما لا تعرفه جدتها العجوز، فقد ماتت... لا بل قُتلت... قُتلت بمشرط تلم وبدم بارد من طبيب فقد إنسانيته وتعامل معها كأنها دمية أو جثة يجري عليها تجربته... ماتت داليا وفي رقبتها سلسلة وضعت بها صورة جدتها كي يتعرف عليها القوم، وكأن قلبها كان يدرك من خفقان ضرباته السريعة المتتالية أن موعد النهاية قد حان، وأن الجدة المسكينة التي تنتظر أمام نافذتها هناك ليس لها إلا الله بعدها...

ماتت داليا وهي لم تحلم يومًا إلا أن تعيش كغيرها؛

آنسة تتمتع بأنوثتها، وزوجة تصون زوجها وتربِّي أولادها، عاشت تحلم بأن تقود تلك السيارة الفارهة، وتذهب إلى النادي كل صباح كسيدات المجتمع... لقد رأت هذا يوما في تليفزيونها الأبيض والأسود وقبلت امتهان كرامتها مرَّاتٍ من نجل البياض لعلَّه يعطف عليها يومًا ويتزوجها...

وقعت في الخطيئة، لكن في مفهومها هذا مجرد خطأ، باعت جسدها بعدما لم تجد شيئًا آخر تبيعه... علمت قبل أيام حملها من خالد البياض وأخفت عنه الأمر لتضعه أمام الأمر الواقع... حتمًا سيتزوجها، هكذا خالجتها نفسها... آآآه يا داليا، كيف فعلتِ بروحك كل هذا ؟... قالتها خلال رحلة خروج الروح من القدم إلى الحلقوم، قالتها وهي تمسك بملاءة سرير الطبيب الجزار ودمها يتسرسب في خطوط طول رسمت مجاري مياه على أرضية الغرفة كلها، قالتها قبل أجزاء من الثانية، قبل الولوج إلى حياة البرزخ المبهمة... ماذا سيقولون عنها في حارتهم التي لطالما نبذتها ونبذها أهلها... تتمنى لو أن يحرقها أحدهم لتصبح رمادًا لا أثر له، أو يذهب بها آخر إلى جدتها لعلَّ دموع العجوز الصابرة على

بلاء السنوات يغسل حفيدتها من الذنب... تفكّر وكأنها لا تريد أن تترك عالمها القبيح الأسود... تلعن نفسها، وسرعان ما تعود للتبرير لها...

ماتت داليا موتتها الأخيرة التي لن تفيق منها في صباح جديد على ابتزاز هذا وقبح ذاك وفُجر هؤلاء وسماجة من هم هنا، وأحيانًا في ذاك الوادي البعيد هناك.

❖ ❖ ❖

- ١١ -

طرق مختار باب المنْزل... سارعت في لهفة وهي تتكئ على عكازها:

- داليا داليا، إنتي اتأخرتي ليه ؟!

قبل أن تُكمل فوجئت بذلك الغريب عنها، بادرته باستنكار لمعرفة هويته... سرى القلق في جسدها كما تسري أسراب النمل... ابتلعت ريقها بصعوبة كأنه لقمة يابسة تأبى المضغ وتنْزل في الحلق والمريء وتخترق القصبة الهوائية لتمزق الجلد وتقبض القلب :

- إنت مين ؟... هي داليا كويسة ؟

- إزيك يا حاجة، أنا سوَّاق البيه زميل داليا... هي تعبت شوية ونقلناها المستشفى، وباعتني أخدك ليها.

- مستشفى! داليا مالها ؟... بنتي، بنتي...

راحت قطرات الدمع الساخنة تلهب وجنتيها، فيما وارى مختار جبهته وتلفت يمينًا ويسارًا وتنحنح:

– يا حاجة متخافيش داليا بخير... تعالي معايا عشان تكوني جنبها.

ارتدت العجوز عباءتها السوداء وتلفحت بحجابها وهي ترتعش... الخوف يضرب في رأسها بمخيط، وشفتاها ترتجفان... لملمت أعصابها وحملت كيس نقودها ورافقت السائق.

❖ ❖ ❖

خيَّم الظلام الدامس على الأجـواء، وغـزت أرواح الموتى الأفق... نبحت الكلاب، وأثارت نسمات هواء رطبة في عز الصيف قشعريرة في الأبـدان... القبور منتشرة في المحيط، وعظام الأجـداد تناثرت بفعل التربة والمناخ... لا صوت يعلو فوق صوت الضفادع التي توطنت عند بئر الماء الذي يسقي منه التُربي حرث الموتى...

هناك من بعيد أُضيئت أنـوار كالسهم تثير الفزع والطمأنينة في آنٍ واحد... البياض مع زوجته وبجوارهما الكلاف... والنور المشع من السيارة هو رسالة مختار للطمأنينة.

جلست الجدة في كنبتها الخلفية... نحيب وولولة من قبل أن تدرك حقيقة ما حدث لنجلتها الشابة... الزجاج الأسود يحجب عنها الرؤية، والظلام يمنعها من أن تتبين هوية المكان الذي تخوض فيه... مختار صامت كأنه صنم لا يجيب توسلات عبيده المشركين، يزيد من سرعته كي ينهي معاناة انتظار البلاء لدى العجوز.

أخيرًا وصل إلى البياض الذي دفن سيجارته بجوار شجرة صبار بالية ونخلة صغيرة قاومت الحياة رغم الرمال والعطش... فتح باب السيارة، فلم تهم العجوز بالهبوط، عاجزة عن الحركة، زاغت ببصرها من وراء حجاب فانقبض القلب بين رئتيها...

- فيه إيه ؟... داليا فين ؟

- تعالي بس يا حاجة، داليا هناك جوه.

- جوه !... داليا جرالها إيه ؟ وإنتو مين ؟؟!

تقدم البياض إليها وهواء الفسيح ينثر غبار الرمال فوق شعره... رابطة عنقه تتطاير فيحاول هندمتها في تصرف لا إرادي يحاول به تبرير عجزه عن النطق... تنحنح بعدما أعطاها ظهره وقال:

– بصي يا حاجة... داليا تعيشي إنتي، حصلت لها أزمة قلبية وهي في الشغل وجرينا بيها على المستشفى، لكن ربنا يعلم وبحق صيامي في الشهر المفترج حاولنا إننا ننقذها وفشلنا... ومعانا تقرير من المستشفى بكده.

بصوت تخنقه حشرجة الموت قالت:

– خدني ليها يا ابني.

سار جميعهم نحو حجرة التربي... صغيرة لا تختلف كثيرًا عمَّا حولها من قبور افترش فوق أرضيتها حصير...

بمجرد دخولها شعروا جميعهم بالوحشة... في الركن كانت داليا ممددة داخل ثيابها الملطخة بالدماء...

ما إن رأتها حتى هرولت وانكبت عليها تقبِّلها، لتختلط دموعها المنهمرة على وجهها وشعرها المتشابك بدم متجلط، تناديها لعلها نائمة وبحاجة لمن يوقظها بوخزة في كتفها وصوت عالٍ قرب أذنيها... وقف القوم من خلفها ينظرون ووجوههم جامدة...

في الأثناء، راحت زوجة البياض تنفث ضيقها في سيجارتها... تدور في أرجاء الغرفة كإنسان آلي

فقد روحه وإحساسه بالآخر، لا تحمل أي تعاطف مع الحفيدة القتيلة وجدتها، تدور وتدور ولسانها يتململ في فمها ويهمهم أن انتهوا من هذا الأمر.

احتضنت الجدة نجلتها في حديث سري بينهما لا يتبينه الحضور، راحت تناجيها وتذكرها بمداعباتهما معًا... تبلغها ما حدث في الحلقة الفائتة من مسلسلهما المفضل، وتحكي عن الملابس الجديدة التي ابتاعتها من السوق خصيصًا لها ليوم زفافها... ضمَّت رأسها إلى صدرها بعد أن انقضت الهمهمة وساد السكون.

نظر البياض إلى الُتربي، ففهم الأخير حاجته لإنهاء الأمر كما اتفقا... تناول ظرفًا به مبلغٌ من المال واتجه نحوها :

- خدي يا حاجة القرشين دول متبرعلك بيهم محمود بيه... إحنا عارفين إن ماكانش ليكي غير المرحومة، وإن شاء الله كل شهر وفي المناسبات هنبعت لك زيهم.

الجدة لا تجيب ولا تحرِّك ساكنًا... دفعها التُربي فانقلبت على ظهرها وعيناها مفتوحتان على مصراعيهما، بهما أحاسيس ودلالات كثيرة ومتباينة،

الغضب والحسرة والضيق والإهانة والضعف والهوان... كانت تلك أخر رسائلها للبياض وزوجته والتُربي... بل وللعالم أجمع...

ماتت جدة داليا وهي تحتضنها، بعدما أدركت من لطخات الدم على فستانها ما وقع لها... ماتت بعدما انقبض قلبها فعانى انفصامًا كهربائيًا أوقف الدم في عروقها ومنعه من الضخ في حجراته... ماتت دون أن تفصح عن مشاعرها تجاه نجلتها التي رحلت قبل أوانها.

نظر الكلاف بجزع إلى البياض وزوجته :

- دي ماتت يا سعادة البيه.

- خلصنا بسرعة... تاويهم هما الاتنين في قبر واحد، ياللا.

حمل الكلاف جثة داليا ونزل بها إلى قبرها المظلم، وفي الأعلى جذب مختار جدتها من قدميها فسقط حجابها ليظهر شيبها زاحفًا في الرمال، راسمًا مع جسدها لوحة لخصت حياتها البائسة.

وارى الثرى عليهما... ثم استقل البياض وزوجته

السيارة التي وجهها مختار وأدار محركها نحو باب الخروج...

أما التُربي، فتسلم حصته من الأمـوال الملطخة بالدماء دون أن يرمش له جفن، حتى إنه لوح بيديه محييًا البياض وهو يغادر مهرولا بعد حين.

❖ ❖ ❖

- ١٢ -

كان الوقت متأخرًا عندما انتظر حسن على ناصية أحد الشوارع يتناول طبق فول بالزيت الحار وحوله عدد من العمال الذين تجمعوا لتناول سحورهم قبل الذهاب إلى البناية التي يشيِّدونها ويقومون عليها... هناك بالقرب من منطقة الزهراء حيث الأبراج العاتية التي يتولى معظم المقاولين ممن جاءوا من الوجه القبلي بناءها.

لا يعرف لماذا طلبته ليلى زوجة البياض في هذا التوقيت، ولماذا أصرَّت على مقابلته في تلك الساعة المتأخرة... كل ذلك يجول بخاطره إلى جانب تساؤلاته المتلاحقة حول سبب مغادرتها له في أخر مرة تقابلا فيها في منْزلها.

كانت نسمات الهواء عليلة رغم حر الصيف... قاطع صوت سيارتها ضحكات العمال وتندرهم بلهجتهم التي تثير ضحك حسن والتي لا يتبين مقاصد الكثير من كلماتها...

نظر إليها بعدما أحنى رأسه قليلاً إلى الأسفل، وأسنانه تملأ فراغاتها بقايا الفول والجرجير... أنهى أخر لقمة في طبقه ومسح يديه في قميصه النص كم وهمَّ بالصعود إلى السيارة بعد أن دفع الحساب وأعطى بقشيشًا.

انطلقت ليلى بسيارتها بسرعة كأن أحدهم يلاحقها أو يتربص بها؛ سرعة تركت الإطارات على إثرها علامات في الطريق تعكس طاقة غضب أو ضيق وربما تشتت وحيرة وقلق.

لم تتحدث ليلى مطلقًا، وشفتاها لا تنفرجان إلا لالتقاط سيجارتها التي تنفخ بها مكنون صدرها المكتوم... سلكت الشوارع كأنها تائهة تدور في دائرة مفرغة حتى تعود لذات البداية، بجوارها حسن وقد جلس يجزُّ ضرسًا على الآخر.

– فيه إيه يا ليلى ؟ منَزلاني على ملا وشي ليه ؟

– مخنوقة يا حسن ومش عارفة أعمل إيه.

– مخنوقة ! من إيه ؟، مالك ؟ أنا لحد دلوقتي مش عارف فيه إيـه... سيبتيني آخر مرة وجريتي كأن فيه مصيبة ؟

– ومش أي مصيبة... إحنا في ورطة...

– إحنا مين ؟! وورطة إيه ؟!

– أنا ومحمود وخالد ابننا.

– فيه إيه ؟ قلقتيني.

– هأقولك يا سيدي يمكن تلاقيلي حل : خالد كان مصاحب واحدة زميلته فقيرة من حارة كده في مصر القديمة، الواد غلط معاها والبنت حملت، ولما راحت تعمل إجهاض ماتت في العملية وكل ده كان في اليوم اللي سيبتك فيه ونزلت جري.

– يا نهار أسود... وعملتوا إيه ؟

– رحنا المدافن ودفنَّاها بعد ما اتفقنا مع التُّربي ولا من شاف ولا من دري... بس أنا مش مطمنة.

– إطمني يا ليلى مادام محدش خد خبر... طيب البنت دي ليها أهل يسألوا عليها ؟

– خالد قال لي إن ملهاش غير جدتها.. مممممم... ودي ماتت من كام يوم.

– آه، يعني مقطوعة من شجرة... طيب ماتقلقيش نفسك وروقي كده... فين خالد ومحمود دلوقتي ؟

– سافروا ليلتها على البلد، منها يريحوا أعصابهم ومنها يجهزوا الفطار اللي محمود عامله هناك.

– مممممم، عظيم.

– أنا محتاجالك جنبي اليومين دول، حاسة إن أعصابي باظت خلاص.

– أنا تحت أمرك يا حبيبتي... من بكرا هأجيلك... معلش بقى النهارده ظروفي صعبة ووالدتي تعبانة شوية.

– سلامتها ألف سلامة... طيب ياللا هأوصلك.

انطلقت السيارة... أزاح حسن مقعده للخلف قليلاً حتى يمدد ساقيه الملتصقين... راح ينظر إلى ليلى بجواره وهي تلف عجلة المقود دون تركيز ويبتسم خلسةً... ابتسامة خبث وتشفي في حال هذه العائلة المحترمة! ينظر وعلى وجهه علامات النصر والظفر... يفكِّر في أيامه القادمة عندما يُخبر البياض أنه يعلم

كل شيء، وأن إصبعه تحت ضرسه... يفكِّر ويتلهف للفرصة التي واتته أخيرًا ليضع يده على القناة التي حلم بها منذ زمن... لا تكفيه أموال ليلى التي يتقاضاها وقتما شاء بعد كل عناق وكل جِماع بينهما، يريد ما هو أكثر.

– حسن... حسن... حسن...

ردَّدتها مراتٍ ثلاثًا حتى استفاق من خيالاته وأوهامه...

ها هما قد وصلا إلى منْزله... كان الفجر يؤذن في الأفق... قبلَّها ثم دلف خارج السيارة... وقف يبتسم إليها حتى اختفت من أمامه بعدما رمقته بنظرة قلق وارتها بالبحث عن ولاعتها.

❖ ❖ ❖

- ١٣ -

جلس القرفصاء بعدما رفع جلابيته ممسكًا بطرفها بين أسنانه وهو يحملق في الأواني ويعدها... يراقب حسونة المنهمك في غسيل "المواعين" وتقطيع البطاطس والطماطم... راحت المياه تغلي في إناء كبير ويقاد عليه حتى تلطخت بالسواد...

أفرغ عبده جيبه من كيس حفظ بداخله أموال الإفطار المتبقية من بيعة الخضار الفاسدة... تلفت يمينا ويسارا وتجاهل سلامات وتحيات المارة، عندما بدأ يعد ورقة ورقة قبل شد الرحال إلى الجزار...

كان السلاموني جزارا شهيرا في قرية طنامل... اعتاد الجلوس أمام جزارته التي احتلت ناصيتين وسط محال كثيرة على نفس الشاكلة... بزيه الأبيض القصير الملون بدماء جاموسة بكر، أرخى بدنه على مقعد من الخشب وراح يدخن الشيشة ويرمق المارة من النساء بنظرات المشتاق للحم أبيض طري لا يؤكل لكن يذاق... يخط

شاربه وهو يقول "اللحم الأبيض يا أبيض"...

طنامل... من أقدم القرى... كان اسمها من قبل طاق النمل وعندما قامت بزيارتها الملكة كليوباترا قدم أهلها لها فروض الولاء والطاعة، كما قدموا هدية للملكة قدرت وقتها بطن من الذهب على صواني من الفضة الخالصة، ومن وقتها سميت على إثرها باسم طن مال ودارت الأيام ومرت العصور حتى أصبح اسمها الآن طنامل.

تمثل تلك القرية مركزا لمصانع الأصواف وبيع اللحوم وبها يتربع نقيب الجزارين... على ضفاف الرياح التوفيقى تنتصب أكشاك اللحوم التي يتهافت عليها الجميع لرخص الأثمان، حتى انتشرت أقاويل وشائعات حول اللحوم ومدى صلاحيتها ومطابقتها لمواصفات مديرية الصحة...

لم يجد عبده أبدا وجهة غيرها... فهناك ما يريد بأرخص الأثمان، يحمل ربع العجل أو نصفه حسب الحاجة وحسب المناسبة والمعلوم... يعرفه الجميع، السلاموني وغيره من الجزارين، وقد أضحت تلك المعرفة بوابته للدخول إلى دهاليز المدبح وخباياه...

هم من جلسته مستبشرا ومستقبلا زبونه المفضل...

بصوته الأجش وقهقة الترحاب قال:

- المعلم عبده... شاي وشيشة يا ولا.

عبده فاتحا ذراعيه وفاه الذي أظهر ضروسه المتآكلة:

- سلامو عليكو يا معلم سلاموني...

سلاموني مستنكرا بلين:

- غيبتك طولت المرة دي... قفلت المطعم ولا إيه يا شيف؟!

- لا والله يا معلم بس الدنيا كانت نايمة وأنا كنت مسافر كدة في مصلحة هقولك عليها بعدين.

- طلباتك يا معلم عبده... شكلك جاي على "عكمة" كبيرة...

- كبيرة أوي همتك معانا...

- في الخدمة... ولا مؤاخذة نجيب من المحل ولا نفتح السلخانة...

حبس عبده دخان شيشته قبل أن يطلقه من

"نخاشيشه"، ثم نظر إلى السلاموني بابتسامة وعينين يفيضان دهاءً:

– ودي عايزة كلام يا معلم...

– بس المرة دي الجاموسة كانت عشر وابنها مات في بطنها وموتها... بس أنا جيبت دكتور البهايم طمني أه... أنا مأكلش عيالي لقمة حرام... كله بما يرضي الله... وإحنا في أيام مفترجة... والله لولاش السكر وإن الدكاترة محرجين علي أصوم ما كنت أفطر ولو على رقبتي... بس ربنا سبحانه بيقول ولا ترمي نفسك في التهلكة...

– ربنا يشفيك يا معلم... ربك رب قلوب... طب والله وما ليك علي يمين، أنا باخد علاج القولون من ٦ شهور ولسه أهو زي مانت شايف... الناس تقولك ده شاب صغير وكسيب والعين علي لحد ما جابوني أرض يا معلم... يللا ربنا كريم...

نادى سلاموني أحد صبيانه وأشار إليه بتجهيز الجاموسة للشيف عبده...

واصل الاثنان تندرهما عما مضى وما هو آت، وسرد عبده قصة الإفطار الجماعي الذي يقوم عليه محمود ابن

الحاج البياض عين أعيان قرية "الحجر".

مرت ساعات على الاثنين وقارب آذان المغرب على الإذعـان للصائمين بالإفطار... كان صبية الجزار قد انتهوا من تقطيع لحمة الميتة ووضعوها في صندوق سيارة عبده الربع نقل.

- ١٤ -

منهمكًا في متابعة الإعداد لأحد البرامج التي تستضيف سياسيا شهيرا... يجلس بين فريق المعدين الذين رضخوا للعمل بأجور ضئيلة في قناة البياض بعدما نال منهم اليأس نصيبا في الحصول على عمل مجزٍ ومريح...

حسن مرددا كلماته البلهاء العقيمة... كعادته في التنظير والفتي والإفتاء... والجميع حوله صم بكم لا يعمهون أقواله الخرقاء... يومئون من خلف وجوه صفراء شاحبة ومضجرة...

في روتين يومي لا يكسر حدته إلا يوم الإجازة... كان هذا حال العاملين بالقناة المكفهرة وجوه من فيها...

الساعي يطرق الباب ويفتح في أنين وأزيز... يطل برأسه فقط كثعبان أقرع يخرج من جحره لاصطياد فريسته...

– الريس عاوزك يا أستاذ حسن

تلفت حسن حوله بعدما رتب أوراق الحلقة:

– طيب قول له أنا جاي أهو

مهرولا إلى مكتب البياض... كان الأخير قد جلس منصتا لتصريحات على التلفاز يطلقها رئيس الحزب، ويحث فيها رجاله ومرشحيه على بذل الجهد لقطع الطريق على المتربصين بمجلس نوابه المقبل...

نهض البياض عند رؤية حسن:

– خد كلملي الشيخ عيسوي دلوقتي حالا... اسأله إيه الأخبار والإفطار هيبقى جاهز إمتى؟

حاضر يا ريس أوامرك:

– أيوة يا شيخ عيسوي يا ترى إيه الأخبار... الريس عايز يطمن...؟

عيسوي بلهجته الفلاحة:

– طمن الريس يا أستاذ حسن كله تمام والفطار يشرف... كله زي ما متفقين.

نظرة وإيماءة طمأن بهما حسن رئيس قناته اللاهث وراء كرسي البرلمان... وأغلق الخط مع عيسوي بعدما أكد عليه مرة أخرى أن يحسب حساب كل شيء...

هم حسن بوضع الهاتف على مكتب البياض قبل أن يهتز في يده لمكالمة واردة، صعق لها تماما... كان الرقم هو ذاته... كانت هي تلك...

لماذا تحادث البياض؟ من أين تعرفه أصلا...؟ تساؤلات دارت في خاطره لجزء من الثانية، وصوت عالٍ يناديه أفاقه من حالته... حاول تدارك الأمر بعدما ضغط زرًا ليصمت الهاتف...

الصمت! لا... يريدها أن تتحدث أن تبوح بالأسرار وما تخفي القلوب... تملك الشك من قلبه وماجت الخيالات به وراجت كأنها خيالات مراهق رأى أستاذته الشابة الصهباء في المدرسة فعاش معها في لا وعيه وقتًا من اللذة...

خرج من المكتب جامعا أشيائه واستأذن بحجة تعب والدته المفاجئ... لا يدري هل يحدثها ويصارحها بأنه رأى رقم هاتفها واسمها يلمع على شاشة البياض أم ينتظر...

استقر به القول على مهاتفتها وطلب لقائها:

– ألو... إزيك يا "وعد" عاملة إيه؟

– حسن حبيبي إيه الأخبار وأخبار الشغل؟

– كله تمام إنتي واحشاني جدًا تعالي نتقابل النهاردة بالليل نتعشى سوا...

لثوان غاب صوتها في محاولة لتلقف الكلمات والأعذار، فاليوم يأتيها البياض قبل سفره إلى البلدة من أجل الإفطار:

– إحم معلش يا حبيبي مش هينفع النهاردة لأن عندي حاجات كتير وكمان حاسة إن أنا مرهقة جدا...

راح يستمع إليها والشكوك تضرب في رأسه كمخلب قط:

– مممم طيب يا حبيبتي مفيش مشكلة... تحبي أجيبلك دكتور؟

قبل أن يكمل جملته قاطعته:

– لا مالوش لزوم دول شوية تعب بسبب الإجهاد والأرق.

أغلق الاثنان الهاتف... التقطت "وعد" أنفاسها بكوب ماء كان إلى جوارها... وهام حسن على وجهه في الشوارع وقد عقد العزم على معرفة حقيقة الأمر أرخت وعد جسدها على المقعد وراحت تتذكر كيف بدأت علاقتها بحسن.. في البدء لم تكن تعرف أنه يعمل لدى البياض، وحين علمت كانت الخطبة قد تمت.. بقيت مترددة أيامًا والأسئلة تضرب في رأسها، أتخبر حسن بكل شيء وحينها قد تغامر بخسارة زيجة محترمة؟ أم تخفي عنه سرها الكبير؟ يومها هاتفها البياض مهنئًا.. صعقت حين أبلغها بأن خطبتها ومن ثم زواجها فيه مصلحة لكليهما، فهو لا يستطيع الزواج منها وهي لا يمكنها البقاء دون زواج.. فكرت طويلا في كلامه حتى استقر رأيها على مواصلة خطبتها لحسن وعلاقتها بالبياض.. أحدهما زوج والآخر عشيق يغدق عليها الأموال.. هكذا حدثت نفسها...

❖ ❖ ❖

راقب حسن سيارة البياض التي انطلقت في مساء اليوم ذاته نحو كابينته المعروف عنه قضاء أوقات اللذة

والمتعة بها... انتظر إلى أن غاب السائق عن الأنظار وقد نام كعادته في السيارة حتى إشعار آخر من البياض بالذهاب هنا أو هناك...

تسلل صاحبنا نحو شرفة الكابينة وقد رأى ما توجست به نفسه خيفة...

كانت هي... "وعد" بقميص نوم أحمر مستلقية على ظهرها ومحتضنة البياض في لهفة ومجون... تمارس عليه حركات امرأة لعوب تحركها رغباتها مع هذا البدين أو ذاك العجوز... لم يطل حسن النظر... ليس بحاجة إلى دليل أكبر من قبلات خطيبته المطبوعة على شفاه البياض ووجنتيه...

انزوى راحلا وقد اشتد حنقه، وبدأت تحركه دوافعه لفضح البياض وابنه وكشف جريمتهما، أو ابتزازهما لنيل أكبر حظ من ربح يداوي به خيانة "وعد" وعاره هو... نعم... عار الرفض الذي يلاقيه من الجنس الآخر ولا يجد له حلا... عار الخدائع المتتالية التي لا يفق منها إلا على خديعة أخرى...

عاد إلى منزله وقد استقر به الحال على تنفيذ خطته

بعد الإفطار الجماعي المنتظر وقبيل الانتخابات بقليل... إنه الوقت المثالي كي تستفز سياسيا فاشلا وراشيا يسلك كل الطرق للوصول إلى غايته... هو الوقت الذي تمتلك فيه القدرة على أن تضربه في مقتل... أن تشيع الدخان حتى لو لم تكن هناك نار... أن تطلق عيارا يدوي في أفق البلدة والدائرة فتسقط اللوحات اللامعة والعالية فوق رأس صاحبها...

اختار حسن طريق الانتقام من الزوج الجاني والمخدوع في آن معا... تمتع بمعاشرة ليلى لكنه انتفض حين علم أن البياض رد له الصاع صاعين دون أن يدري...

ذهب إلى القناة في يومه التالي كعادته... طمأن الجميع وعلى رأسهم البياض على والدته المريضة كما أبلغهم سلفا... وهاتف "وعد" مصطنعا الاطمئنان عليها، وهو يكز على أسنانه من الغضب...

دورها سيأتي لاحقا... هكذا قال في سريرة نفسه... كل بأجل وميعاد... أما الآن فوقت التفكير والتدبير لما هو آت.

❖ ❖ ❖

- ١٥ -

انتصف الليل وهـو راقـد على الأرض فـي غرفة المعيشة بشقته التي كان أبوه قد ابتاعها له... وحيدا إلا من زجاجات خمر وتذاكر هيروين ملأت المنضدة أمامه...

أغمض عينيه محاولا تناسي جريمته وجريمة أبويه، فيا ويله من ذنب سيحمله طوال عمره ويا له من إحساس مقيت حتى إن لم تكن داليا إلا سلعة اشتراها للمتعة هكذا دوت الأفكار في عقله...

في غيبوبته أقبلت هي عليه بسكين ملطخ بالدماء، نهض مفزوعا من رقدته في الظلام الساكن... لا يتبين حقيقة ما يحدث ولا كيف وصلت إليه وهي راقدة تحت تراب قبرها... كلما حاول النهوض سقط أرضا حتى التصق وجهه بقدميها الغارقين في الدماء أيضا... راحت ضربات قلبه تتسارع وسط ونحيب وتوسلات بأن تعفو عنه...

داليا لا تنطق ببنت شفه ولا تومئ بإيجاب أو سلب... داليا لم تأت في الأصل... لم تغادر تربتها وحسابها القائم في العالم الآخر... لم تفارق جدتها الموارى عليها التراب إلى جوارها... هي في عقله الباطن...

هو من غادر إليها بعدما تناول جرعة زائدة... صف الهيروين في خطوط بواسطة شفرة حلاقة على سطح مرآة عكست وجهه الشاحب وعيناه الحمراوتين وأنفه الذي ثبت في فتحته أنبوب استنشق به تذكرة واثنين... لم يكتف بذلك وكأنه أراد الانتقام من نفسه التي أمرته بإعدامها... أخرج ولاعته بعدما وضع فوق لهيبها تذكرة أخرى على ورق ألومنيوم ثم استنشق أبخرتها المتصاعدة ليحصل على تأثير أكبر...

وساوس شيطانه لا تفارق أذنيه... وصورة ضحيته تلوح في أفقه وتحاصره كزنزانة صماء لا هواء يدخلها...

التقت رغباته مع بؤسه فحقن نفسه بتلك الحقنة التي انتشلته من عذابه إلى عذاب آخر... كان قد أذاب الهيروين في ماء وأضاف إليه قطرات من الليمون في ملعقة... حقن نفسه في الوريد فسكنت آلامه

للأبد... حشرجة الموت في الحلقوم... ارتفعت يداه لأعلى بشكل تائه بعد فوات الأوان... أزيز الزجاجات كسر سكون الليل وقطرات الخمر تدفقت متتابعات في أركان الغرفة وعلى جسد خالد العاري...

اغتسل بالخمر مثلما عاش مدمنا له ولشهواته... مات نتيجة تناول جرعة زائدة من مخدر الهيروين أدت لتلف عروق جسده وأنسجته وعجلت بأزمة قلبية لم تفد معها نظرات عينيه المرعوبة من مصير محتوم.

❖ ❖ ❖

في سرادق ممتد بطول الشارع والبلدة خرجت أطرافه من المسجد المعد للإفطار، اصطف أهل البلدة قابعين على كراسيهم ووجوههم تصطنع الوجوم... يجلسون وألسنتهم تتململ في أفواههم وصوت همساتهم يتصاعد في الأفق.

يتندرون بحادثة وفاة ابن البياض ويفتون كعادة أهل القرى والمدن... راح أحدهم يغمغم بأن خالد مات في ملهى ليلي فهو شاب فاسق فاسد عديم الأخلاق، تربية أمه كما يقولون... ومنهم من ذهب بخياله إلى

أن الولد قتل على يد بلطجية خرجوا عليه على الطريق الدائري بمصر بعد منتصف الليل وهو عائد من إحدى نزواته ومعه فتاة ليل قتلت هي الأخرى وسرقت أموالهما وكذلك السيارة...

لم يخلو العزاء من فتاوى القوم المتكررة... من يعلم ومن لا يعلم... آفة القرية لا تنقطع ووجوه أهلها العابسة لا تضحك... البطالة والفقر ينهشان أجسادهم وأرواحهم حتى قضت قسوة الحياة على ما فيهم من أمل فى الغد وما يميزهم عن غيرهم من كائنات خلقها الخالق في هذا الكون...

أضحت حياة الغالبية في قرية الحجر مزيجا من الجلوس على المقاهي ليلا والنوم نهارا... لا يبرح المنزل إلا قليل منهم... السعي إلى الرزق... أه... مجبورون على قطعة الأرض التي تركها هذا الجد وذاك الأب... الأرض عرض... ولكن أي عرض بعدما استباحت أعراض!

وقف البياض والشيخ عيسوي وبعض الأقربين عند أول العزاء بباب المسجد... يتلقون التعازي بدم بارد من الجميع إلا محمود الذي انفطر حزنا على نجله الوحيد...

خالد الذي عمل وجد وراوغ وقدم الرشوة من أجل تمهيد الحياة له كي يحمل اسمه بعد مماته...

الأفكار في عقله لا تأخذ راحة كأنها ألة في مصنع لا تبرأ حتى ينتهي مخزون المادة الخام أو يرحل العامل عنها تعبًا... هيهات... المصنع لا يتوقف والعامل بديله حاضر قبل الموعد... المواد الخام كثيرة ومتناثرة فى الأركان ولا مفر لتلك الألة إلا أن تتعطل فيذهب بها أحدهم إلى المهندس المختص ممنية النفس أن يفتي بانتهاء صلاحيتها...

في الأثناء وداخل سرادق مجاور أصغر حجمًا من الآخر، كانت ليلى البياض قد جلست تحيط بها النساء المتشحات جميعهن بالسواد... قطبت وجهها وتقوقعت حول ذاتها، وقد زاغت عيناها في الأفق... بدت للمرة الأولى هرمة للغاية... لا يتبينها المرء إلا إن ركز ودقق النظر... تائهة في نظراتها لا تدري إن كان هذا حقيقة أم خيالا... لا تلتفت إلى الأخريات اللاتي جئن شامتات أو مواسيات أو متندرات...

حملت بين كفيها صورة ابنها ودموعها تسيل فترسم

مجرى نهر على خديها... مكلومة تلوم نفسها وتعنفها... تحمل نفسها ذنبا سرعان ما ستتجاوزه بفعل الوقت والأيام...

سكوت واجم وشفاة يابسة... جلسا وحيدين في القصر كأن على رؤوسهم الطير... لا تقطع السكون إلا حركة مفاجأة من قط عجوز يعيش هنا من سنين...

ليلى غير مصدقة حتى الأن... وصـراع داخلي كالبركان على وشك أن يثور بين ضلوع البياض... ما بين الاستكانة والعزلة حزنا على ولده الوحيد الذي أضاعه بتصرفاته ونمط حياته العفن، وبين حلم الكرسي الذي اقترب أكثر من أي وقت مضى... في تفكيره هذا إلى أن طرق الباب الشيخ عيسوي ومن خلفه زوجته بصينية طعام شهية، لكن لا نفس تطيق الطعام ولا الشراب...

وقـف عيسوي بين البيه والهانم بوجه يصطنع العبوس:

- اتفضل يا محمود بيه كلك لقمة... اتفضلي يا هانم.

- .....

- يا جماعة الحي أبقى من الميت، وإن شاء الله يجمعكم في جنة الخلد بعد عمر طويل... بس مش كدة لازمن تاكلوا لقمة.

-.....

- ديه دي طب ده كلام ما تتكلم يا محمود بيه ده أنت الراجل... واجبك تقوي الست هانم.

استقام البياض وقلب النظر رافعا رأسه إلى عيسوي:

- بارك الله فيك يا شيخ عيسوي... اتفضل انت وأنا هاكل كمان شوية مع الهانم.

- شكرا على إيه يا محمود بيه ده إنت خيرك مغرقنا... همي بينا يا بت عشان الدكتور يستريح هو والهانم همي...

رحل عيسوي وزوجته وانغلقت الأبواب على الاثنين... ليلة قاحلة أبت أن تنقضي إلا وشريط من الأحداث المشينة يجري أمام البياض وزوجته.

❖ ❖ ❖

- ١٦ -

بسيجارة كليوباترا في فمه ووجه يتصبب عرقا من حرارة الشمس وقف مختار بخرقة قديمة يمسح زجاج السيارة انتظارا لسيده الذي قرر الخروج أخيرا والذهاب إلى محطته الفضائية بعد أيام من العزلة منذ مات نجله خالد...

خرج البياض مرتديا نظارة شمس سوداء وبدلة من نفس اللون... ركب سيارته دون سلام أو كلام حتى وصل إلى مكتبه... ما إن جلس حتى جاءه العاملون من أجل تجديد التعازي والترحاب بالعودة التي أنارت اليوم والمحطة والعالم بأثره...

التفت إليهم في عصبية غير متوقعة... نهرهم وطالبهم بأن يعيدوا بث القناة بشكلها الطبيعي وأن ينهو هذا الحداد المعتم الذي استمر أسبوعا كاملا...

كانت القناة قد أوقفت برامجها بشكل فوري منذ وفاة خالد، بأمر من حسن مدير البرامج، واستمرت على هذه

الحال إلى أن عاد البياض بعد مكالمة جاءته من ذلك الذي يقبع على كرسيه لا يحدو عنه بعيدا ولا يتململ... نهره بشدة بعدما نعى ولده، وذكره بما هو قادم وما هو أولى بالاهتمام والتركيز في المرحلة المقبلة...

انتفض البياض في مكالمته حتى كاد الهاتف يطير من يده، وما لبث أن اعتذر مرات عدة في نصف دقيقة إلى أن أُغلق الخط في وجهه.

ارتمى على كرسيه بعدما أمر الساعي بإحضار فنجان القهوة وإبلاغ حسن بحاجته إليه... فما كان من الساعي إلا أن أخبره بغياب مدير البرامج على مدار الأيام الماضية...

ثارت ثورة البياض مرة أخرى وضرب بيده على المكتب ضربة رن صداها في الغرفة كلها...

– ده مال سايب بقى... محدش شايف شغله... إنتو فاكريني مت ولا إيه...!

على حالته إلى أن أغمي عليه... أسرع عبد الله لإحضار كوب ماء وإبلاغ محمد عبده والعاملين الذين ملأوا الغرفة وطلبوا طبيبا في الحال...

كانت غيبوبة سكر نتيجة الانفعال الزائد... استفاق منها على خير وهو يكاد يغشى عليه مرة أخرى... نصحه الجميع بالعودة إلى المنزل ليرتاح قليلاً وهو ما كان بالفعل...

توكأ على ذراع مختار حتى باب السيارة الذي فتحه ابن أخته وألح على الذهاب معه إلى المنزل للاطمئنان عليه، قبل أن يرفض البياض ويطمأنه أنه أصبح في أحسن حال وأنه يريد النوم قليلا...

وصل محمود بيه إلى منزله... في باحة البيت ارتكن على مقعد وثير... نادى زوجته... تلفت حوله فإذا بالدهشة الممزوجة بالشكوك تحتل ملامحه...

تسمرت عيناه على سلسلة مفاتيح ملقاة على المنضدة الزجاجية بجوار التليفون...

لا يصدق نفسه... يعرف تلك السلسلة جيدا فلطالما وسوست في مكتبه كلما جاءه حسن في طلب علاوة أو إجازة أو غيرها...

ما الذي أتى بها إلى هنا؟! وأين حسن! نعم لقد تغيب عن الحضور للقناة وهاتفه مغلق...

انتفض واقفا من جلسته:

- يا ليلى... يا ليلى

بصوت مرتبك أجابت من غرفة نومها في الطابق الثاني:

- أيوة يا محمود إاانت جييت!

احتل القلق والخوف وجهها الذي تملأه قبلات حسن العنيفة وآثار أنيابه التي خطت في رقبتها البيضاء... ارتدت قميص نومها بسرعة ثم ركضت إلى الطابق الأرضي قبل أن يفاجئها زوجها بالصعود إليها...

كان حسن قد تسلل من شرفة غرفة النوم، ومنها إلى لسطح البناية حتى يهدأ الجو فيخرج إلى حيث عاد دون أن يراه أحد...

- ازيك يا محمود إيه اللى رجعك بدري كدة؟!

وقف يتفحصها بعدما خبأ المفاتيح كي لا تدرك أنه كشف أمرها... لاحظ آثار هيئتها وتأكد أنه حسن ولا أحد غيره...

- أبدا تعبت شوية وأغمي عليا قبل ما يطلبولي دكتور

الحمد لله

بصوت يجاهد للخروج من خانة الرعب في منزل ملئ بعفاريت العالم السفلي:

- أغمى عليك إزاى... فيه إيه؟

- نوبة سكر وعدت... المهم هو حسن معداش عليا هنا.

زاغت ببصرها كأن حية لدغتها فما استحال معها دواء:

- حسن! لا! ودا ودا إيه اللى هيخليه يجي هنا؟!

- مممم لا أصله مجاش القناة النهاردة وموبايله مقفول فقولت يمكن يكون عدى علي هنا... عموما أنا هطلع أريح شوية وأما أصحى أكلمه...

بتلقائية فاضحة زادت شكوكه وجعلته يتيقن مليون بالمائة:

- هتكلمه ليه... هو فيه حاجة؟!

نظر إليها باستغراب وأومأ بالسلب قبل أن يغادرها، وهي متسمرة وقد انسحب الدم من عروقها.

- ١٧ -

امتلأت الشوارع بالصبية ذوي الجلاليب المتسخة والأعين المخبأة وراء خلايا الذباب والعماص... راحوا يشاهدون ويضحكون هذا العامل الكهربائي وهو يعلق مصابيح الإضاءة أعلى السرادق أمام المسجد...

السرادق ذاته وهكذا المسجد أيضا... أياما قليلة فقط تلك التي تطلبها الأمر ليتحول نفس السرادق من عزاء ووولولات إلى أضواء لامعة وحفل إفطار يضفي البياض به على نفسه تقوى تقوى وأبهة يحبهما أهل البلدة.. كان البياض يعلم أن الأهالي لا يهمهم إلا المظاهر، لا يلتفتون إلى ما غير ذلك.. مادام يصلي أمامهم ويتبرع بالأموال لبناء بيت الله فهو من الصالحين.. حتى وإن رأوه على حقيقته فلا يهم.. هم في نظره مجموعة من الرعاع عديمي الفائدة.. لا وزن لهم ولا لآرائهم التي هو قادر على شرائها بالمال.

تبدلت ملامحه من الوجوم إلى الابتسامة البهلوانية التي تشبه ابتسامة مهرج يقف وسط حشد من الناس

يرمقونه وهو يتلوى مع قرده اليتيم... يمني النفس بجنيه أو نصف الجنيه حتى... هم في نظره لا يساوون أكثر من هذا... وهو في رأيهم البهلوان المتسول المجبور على حمل طفل وقف يسح لأبويه من أجل أن يقترب من القرد ويلعب معه...

ابتسامة البهلوان زاحمها قلق مبرر من انتهاء اليوم على ما يرام وكسب أكبر عدد من التأييد...

الكرسي الملعون لا يفارق خياله... مات ابنه وزوجته تخونه، لكن هذا أبدا لم يكن عائقا أمام حلمه الذي ورثه عن أبيه وجده...

وقف مكفهرًا يتابع بترقب بعدما ارتكنت سيارته فأغلقت الشارع... تجمع حوله الشيخ عيسوي وبعض أكابر البلدة فيما ذهب الأطفال يمسحون بأيديهم المليئة بجراثيم حمام عمومي أبواب السيارة وزجاجها...

نهرهم مختار بشدة حتى إنه ضرب أحدهم، فعاجله البيه أن رفقًا بالأطفال فهم أحباب الله... قالها وفي دواخله إن كان قادرًا لألقى بهم في الترعة حيث البلهارسيا تنهش أجسادهم... تلك السيارة وهذا

القصر... البدلة السموكن والسيجار... إنهم هو... لا يساوي شيئا بدونهم...

جلس القوم على دكة اسطنبولي أمام المسجد يتممون على كافة ترتيبات الإفطار... ملأت اللافتات الأرجاء وبدأت الأنوار تومض لتعلن عن ليلة سيذكرها كل أهل القرية... ليلة لن تغب عن بالهم يوم الامتحان وراء ستارة الصندوق البالية...

غاب برهة ثم عاد وقد أحضر سيارة ربع نقل مكشوفة عليها ميكروفونات عتيقة ويقودها شاب مراهق خط الشارب تحت أنفه... وقف مختار متوجا إخلاصه لسيده بحنجرة تخرق الأذان وتصل لمن هم داخل مخابئهم أو من هم نيام...

ذهب ينادي في الخلق أن الإفطار اليوم في مسجد "الدعوة"... إفطار ينظمه ويرعاه ابن البلدة البار وحكيمها والمخلص لها ولأهلها الدكتور محمود البياض... ينادي مناداة الجائع والظمآن الذي انكب على مائدة طعام وشراب بعد جوع وظمأ أيام وليال في الصحراء القاحلة...

من فوق سيارته نثر حبات "الطوفي" على الأطفال الذين لهثوا خلف غبار السيارة، فيما وقفت النسوة في الشرفات وأمام البيوت يشاهدن السيارة وهي تلف أرجاء البلدة...

في الأثناء، لم يفارق البياض جلسته مع عيسوي متمما معه قائمة بأسماء كبار القرية وأعيانها وأرباب العائلات ذوي الثقل ممن سيحملونه إلى كرسيه المنتظر...

طمأنه عيسوي أن الجميع في الموعد حاضرون ومع أذان المغرب سيرتوون ويأكلون حتى شبع لا يطلبون بعده الطعام أياما...

في جلستهم، واصل عمال الفراشة ما يقومون به... فافترشت سجادة حمراء كالسجاجيد الهوليودية وتزين المسجد بفوانيس رمضان وامتدت الموائد في أنحاء الجامع بطابقيه الأرضي والعلوي.

❖ ❖ ❖

- ١٨ -

في طريقه إلى القرية الموعودة جلس حسن وبجواره "وعد" في سيارة ملاكي استأجرها خصيصا للسفر... منغمسا في تفكيره فيما بعد الإفطار... في نظراته للحقول الممتدة على جانبي الطريق راح يرسم خطته لابتزاز البياض والانتقام من "وعد"... هذان اللذان خاناه ليزيدا أوجاعه القديمة التي ظن أنها انتهت...

عقد العزم على أن يصبح شريكا في فضائية البياض وإلا فضح أمر ابنه وزج به إلى السجن وأنهى حلمه البرلماني... واثق الخطوة يمشي نحو هدفه دون أن يدري ما يخبأه القدر له... فالبياض أعد العدة هو الآخر...

ذلك اللص العجوز لن يفوت فعلة حسن وزوجته... فقط حفل الإفطار هذا يحول بينه وبين قتلهما... هي مجرد ساعات قليلة وينتهي الأمر برمته... لقد رتب البياض أوراقه يوم تأكدت ظنونه حول خيانة ليلى مع هذا الموظف...

حكم قتلهما صدر وفق قانونه ودستوره... المسألة أسهل من شكة الدبوس لديه... فهي ليست المرة الأولى التي تتلطخ يداه فيها بالدماء...

أثناء جلوسه، عاد البياض بذاكرته قبل أعوام عدة عندما كان شابا... تذكر إحدى الليالي التي رأى فيها والده وقد سقط مغشيا عليه بعد هزيمة مذلة في الانتخابات على حساب منافسه من البلدة ذاتها.

كان "الوحش" صاحب سيط كبير في البلدة... يحبه الكبير والصغير... لم يطرق بابه أحد إلا وخرج من عنده مجبورا وداعيا له وفِرحًا... اعتاد دخول الانتخابات واعتاد النجاح أيضا... لم تنجح معه محاولات البياض الأب للتنحي جانبا أو حتى كسب مؤيديه بالمال...

خسر البياض الجد أمامه ومات متحسرا بعدها بأيام قليلة، وكاد الأمر ذاته يتكرر مع والد محمود في تلك السنة لولا أن سارعوا به إلى الأطباء فعاش ما تبقى من حياته بشلل كامل لا يقوى على الكلام ولا الحركة...

تذكر ليلتها عندما خرج متخفيا بعد منتصف الليل ودخل إلى قصر "الوحش" فقتله بطعنات متفرقة

اخترقت صدره ومزقت قلبه ليلفظ أنفاسه أمام مرأى محمود الذي وقف ينظر نظرة نصر والسكين تقطر الدماء على أرضية الغرفة وعلى يديه...

لم يصلوا إلى القاتل رغم التحقيقات المضنية... وعاش محمود مخبئا سره إلا عن والده...

انتظر سنوات قليلة حتى فتحت المحافظة المزاد العلني لشراء قصر "الوحش"، فالرجل كان عقيما وتوفيت زوجته قبله بعدة سنوات، عاش وحيدا مع خدمه ملهيا فى تجارته وأعماله البرلمانية...

اشترى محمود القصر ورغم هجرته للبلدة واستقراره في القاهرة لم يفرط فيه أو يعرضه للبيع... أصبح دائم التردد عليه في كل مناسبة تحين للذهاب هناك... فهناك ثأر لوالده وجده، ومن شرفة هذا القصر سيعلن الأفراح والليالي الملاح عندما يفوز بالكرسي...

استفاق البياض من ذكرياته وأسراره على نداء حسن ووعد التي غطت شعرها بطرحة من التُل لا تخفي إلا القليل من شعرها المموج:

- كل سنة وأنت طيب يا محمود بيه

نهض من مقعده وقد مد يده إليه وأحكم قبضته وهو ينظر في عينيه مباشرة:

- وإنت طيب يا حسن... نورت إنت وخطيبتك... اتفضلوا...

تلفت البياض حوله فلمح طفلة صغيرة وقفت بالقرب منهم إذا احتاجوا شيئا ما... ناداها للذهاب بـ"وعد" إلى مدام ليلى والحريم حتى تستريح من عناء السفر قبيل الإفطار.. ثم تحول إلى حسن عاتبا عليه بشيء من اللوم تغيبه عن القناة منذ وفاة خالد وابتعاد البياض عن مباشرة العمل بشكل أكبر، وهو الأمر الذي قابله حسن بإيماءة خجل تخفي ضيقًا وحنقًا.

❖ ❖ ❖

- ١٩ -

أنهى الأهالي أعمالهم... أغلق حمدان ملعبه وأسرع إلى منزله فاغتسل وارتدى جلابيته البيضاء الناصعة... انتهى المهندس عنتر هو الأخر من جلسته مع هذا الذي جاءه ليمرر له أوراقا تسمح بالبناء على قطعة أرض زراعية بعدما أخذ عربونًا معتبرًا...

استيقظت فتحية من نومها على رنين هاتف "وعد" لها... الجميع يهرع يلملم حاجاته من أجل الإفطار... دقائق ويرفع رائف صوته مؤذنا لصلاة المغرب وانتهاء ١٦ ساعة من الامتناع عن الطعام والشراب...

شمر الشيخ عيسوي أكمامه... حائر بين الشيف عبده وبين الأهالي الذين ملأوا باحة المسجد هم وأولادهم في ضجيج معتاد وتأوهات معدة مغضوب عليها لم تحرك ساكنا منذ سحور أمس...

جلس الرجال في الطابق الأرضي فيما تموضعت النساء في الطابق العلوي... كل رجل يحتضن ابنه بين

ذراعيه ويبتسم للمحيطين بشكل فاتر...

جلس البياض ومن حوله أعيان البلدة وكبرائها... راحوا يتبادلون أطراف الحديث فيما يحدث بالبلاد وما ينقص القرية وأهلها... وكل فينة وأخرى يحثهم على دعمه في الانتخابات المقبلة... يومئون له بالترحاب والتأييد وفي نظراتهم لبعضهم البعض يسخرون منه ومن عائلته وتاريخها فى اللهث وراء المناصب... يتندرون في جلستهم من وراءه حول تجارته في المخدرات التي يعلمها الجميع...

امتدت مائدة السادة في بهو المسجد يترأسها البياض كرئيس مجلس يدق بشاكوشه الخشبي فينصت له الجميع فى أدب جم... الخيالات تكاد تقتله والأحلام كطائرة ورق يمسك بخيطها ويعجز عن إعادتها إلى الأرض حتى لا تهرب أو تنشبك في فرع شجرة أو جريدة نخل فتتمزق...

جلس الأعيان ببدلهم وجلاليبهم الفاخرة يزيحون من اقترب منهم ويتمنعون في مد أياديهم للحرافيش الذين ملأوا المسجد...

الحرافيش... فقراء الزفة وعبيدها... فسدة لا يقلون شيئا عن الأعيان... في ملامح وجههم المشققة ترى حسرة على واقعهم المؤلم وحقد على ذوي القصور والسيارات الفاخرة... ظروف أضحت حجتهم ومبررهم للغش ليل نهار...

دار الشيف عبده على الصائمين القائمين ومن خلفه حسونة بإناء ضخم مليء باللحوم منتهية الصلاحية التي ابتاعها من المعلم السلاموني... الرائحة نفاذة لا تنم عن شيء قبيح...

كلٌ في لهفة ينتظر اقتراب عبده منه فينال منابه لحم أحمر أو قطعة من الضلع يمصمص فيها ويروي ظمأ أسنانه التي زهدت الفول والعدس...

يسارعون بمد أيديهم... يدفنون الطعام في "حِجرهم" وفي فم أبنائهم... يتنافسون أيهم أكثر جشعًا... لا يبالون أين هم ومتى...

لم تحرك السور القرآنية التي زينت جدران المسجد ساكنا فيهم، كتلك التي ملأ بها عيسوي منزله ولم يفهم معناها قط...

لم يكن حال النساء بأقل مما يفعله أزواجهن... تجمعن حول "ليلى" يتملقونها كعبيد يريدون من سيدهم العتق أو الرضا على أقل تقدير... يضحكن على كلماتها السخيفة، وروحها الجامدة بين خلجات صدرها المقتول منذ زمن...

لا تأبه بما يدور حولها ولا النساء الكثر هؤلاء... استرقت النظرات إلى "وعد"... ودّت لو تطعنها بخنجر مسموم فتمزق أحشاءها وتنهي أمل حسن فيها، فلا تريد شريكة لها في هذا الذي يشبع رغباتها الشبِقة.

انزوت "وعد" في ركن مع خالتها فتحية... تتندران بمجون هامس عن أحوالهما... كأنهما في سرير يضاجعون رجالا على الملأ بلا حياء...

مسح عبده عرقه المتصبب من وجهه بعدما وزع الأطعمة عليهم كبيرا وصغيرا... راح يقف عند أوانيه الكبيرة التي لا تزال ممتلئة... بإشارة جمع حسونة ما يقدر على حمله من طعام زائد سيوفر عليهما كثيرا الأيام المقبلة وخرج دون أن يلاحظه أحد...

زاغت عيون الصائمين بين النظر إلى ساعاتهم، وبين

رائف الذي احتضن الميكروفون بين يديه في انتظار انقضاء دقيقة الصوم الأخيرة من يومهم الشاق...

وبعد طول انتظار، صدح صوت رائف بآذان المغرب... الله أكبر الله أكبر... أشهد أن لا إليه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله... هم القوم بشرب أكواب الماء التي كسرت ألواح الثلج بداخلها... ماء وتمر وعصائر بأنواع شتى...

سباق لا يعرف قواعد أو قوانين... يمنون النفس لو أنهم يمتلكون عشرة أيادٍ تساعدهم على التكويش على أكبر قدر من الأرز والخضار واللحوم... دقائق صمت لم تلبث أن تبعتها صيحات هنا وهناك... الأيادي ترتفع إلى أعلى... إلى حسونة والشيف عبده تطلب مزيدا من الطعام هنا... يملأون أفواههم وبطونهم... لا يأبهون بشيء بغيض ربما يكون قد اندس أو ما شابه... لا يميزون طعما... لا يأكلون ثلثا لطعامهم ويدخرون ثلثين للشراب والنفس... الطعام يكاد يصل الترقوة... البطون تنتفخ والأيادي التي ستحاسب عن أفعالها لا تتوانى في جلب الطعام على مقربة أكثر...

لا فرق بين غني أو فقير في نظراتهم وضحكاتهم الصفراء الأخيرة... التصقت بقايا الطعام في أسنانهم ولثاهم، ولطخت بقع البسلة والبطاطس أثوابهم البيضاء...

رويـدًا رويـدا خفتت طاقتهم... تـواروا بكروشهم إلى الحوائط المحيطة والأعمدة الشاهقة التي وقفت شاهدة على مشهدهم الأخير...

زاغت الأعين وخرجت من بؤبؤها... اللحوم التي ملأوا بطونهم منها لم تكن إلا سُم... لحوم جاموس ميت مسموم كموتتهم التي لن ينقذهم أحد منها...

امتدت الأذرع لأعلى طلبا للنجاة... إلى ربهم الأعلى الذي وقف ينظر إلى مشهد اعتاده منذ أغرق قوم نوح وسخط قوم لوط وعصف بعاد وثمود...

البياض تخنقه رابطة عنقه وكذا أعيانه المجتمعون... لن يخرجوا إلى سياراتهم الفارهة التي تملأ محيط المسجد... لن يبرحوا موضعهم هذا إلا إلى قبر موحش مظلم روى عنه أساطير...

البطون تتمزق والمعدة تود لو أنها واصلت صومها...

يضعون أيديهم داخل حلوقهم... محاولات يائسة لاستفراغ سم تغلغل في العروق وانفلت من قبضتهم...

تعالت الآهات ولطخت بقايا الطعام وجوه من سقط عليها مفارقا دنياه... هذا لن يعود إلى مقهاه ولا ذاك سيعود لمرافقة درج أمواله المغلق بإحكام عند ملعبه...

قاوم البياض ساعة لن ينفع معها رصاصة كتلك التي قتلت "الوحش" قديما... وحسن في شهيقه الأخير لن يحصل على مراده بعد حياة جنى فيها على نفسه وآخرين أكثر مما ربح...

ملأ الرعب وجوه فتحية و"وعد" وليلى والأخريات... روائحهم الحقيقة أثارت فضول عزرائيل المنتشي بغنيمته الكبيرة... آلامهم تغذي روحه ورعب وجوههم يمنحه جرعات أكبر من الضحك واللهو...

حائر في إنهاء مهمته سريعا أو التأني للاستمتاع بمشهد ضعاف النفوس من المذنبين والضحايا... تجار فسدة وانتهازيون... بغاء عاشوا لاهين...

واصل عذرائيل مهمته في تمزيق أجسادهم واللهو بروحهم إلى أعلى وإلى أسفل... سالت الدماء من

أفواههم وأنوفهم وآذانهم... ذهب الظمأ وابتلت العروق وليتها لم تبتل...

كافحت الأعين غفوتها الأبدية... لأجل فرصة جديدة لن تحمل توبة نصوحة... السابقون يتلألأون في أفق المسجد، مكفهرين وقد تبدلوا لأشباه وحوش مفترسة تنتظر دفعة جديدة ستدخل إلى السياج لتؤدي خدمة مليك بالسوط في عالم سفلي مظلم وقاحل...

❖ ❖ ❖

المؤلف في سطور

- أديـب وصحفي من مواليد محافظة أسيوط بصعيد مصر
- تخرج من كلية الإعلام قسم الصحافة. جامعة القاهرة، ٢٠١٣
- عمل في عدد من الصحف والمواقع الإخبارية والمراكز الحقوقية المصرية والعربية أبرزها: صحيفة التحرير المصرية، جريدة الجريدة الكويتية، صحيفة العرب القطرية، شبكة الإعلام العربية، جورنال مصر، مركز صحفيون متحدون، مركز أندلس لـدراسـات التسامح ومناهضة العنف، شبكة المدافعين عن الحريات الإعلامية.

• **الإصدارات:**

– رجل العباءة: قصص قصيرة. شمس للنشر والإعلام، القاهرة – الطبعة الأولى: ٢٠١٤م – الطبعة الثانية : ٢٠٢٠.

– الإفطار الأخير: رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة – الطبعة الأولى : ٢٠١٥م – الطبعة الثانية: ٢٠٢٠

– سجن العقرب: رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦.

– مملكة فسكونيا: أقصوصات ساخرة. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٨.

– تُرجمت روايته "الإفطار الأخير" للغة الإسبانية، كما تُرجمت روايته "سجن العقرب" للغتين الإنجليزية والإيطالية.

– البريد الإلكتروني:

Hesham.awad33@yahoo.com

شمس للنشر والإعلام
٢٧ ش الثلاثين - برج الشانزليزيه - زهراء المعادي - القاهرة
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net